سُوم

الجزء الأول والثانى - المجلد الرابع والثلاثون

١٩٧٨

أناشيد
الزواج المقدس تموز ونسيد للاله نشاد سليمان

د. فاضل عبدالواحد علي
استاذ السومريات
كلية الاداب – جامعة بغداد

من المعروف عن العقيدة الدينية عند السومريين والبابليين انها تتصف بصفات عديدة لعل من ابرزها واهمها مبدا الحيوية (Animism) ومبدا التشبيه (Anthropomorphism) اللذان يرجعان الى معتقدات انسان عصور ما قبل التاريخ . اذ من المعروف عن انسان تلك العصور انه كان شديد التاثر . بحكم اسلوب حياته البدائية . بالظروف الطبيعية . ولا شك في انه احس من خلال تاملاته في ظواهر الطبيعة ومن خلال صراعه معها . وخاصة تلك التي كان لها مساس مباشر بحياته اليومية ، بأن في تلك الظواهر قوى وارواحاً مما تسبب مثلاً هبوب الرياح والعواصف ، حدوث البرق والرعد ، هطول الامطار وحدوث الفيضان .... وبالمثل فانه عزا الى مثل هذه القوى جميع مظاهر التجدد والعطاء كظهور العشب وتفتح البراعم وتكاثر الحيوانات وكثرة الخيرات في موسم الربيع .

ونتيجة لعملية التحدي والتفاعل المتواصلة بين الانسان وقوى الطبيعة . فقد كان منطقيا ان يتصور الانسان تلك القوى بهيئة البشر وان يسبغ عليها . عندما جسدها بآلهة . جميع صفاته . ولهذا نجد ان الالهة في وادي الرافدين كانت تتصف بكل مظاهر الحياة اليومية للانسان وانها كانت تشبهه في احتياجاته وسلوكه ورغباته . فالاله ايضا كانت تاكل وتشرب وتتزوج وتتناسل وتذنب وتمارس الحكم وتعقد مجلس تبحث وتقرر فيه مصير الكون والبشر . ولعل الفرق الوحيد بينها وبين البشر . في نظر القدماء من سكان وادي الرافدين . ان الالهة لاتموت .

وفي عصر مبكر من تاريخ وادي الرافدين . جسد السومريون ومن بعدهم البابليون . قوى الخصب التي تسبب التكاثر والانماء بالهة للخصب هي أنانا (عشتار) وباله للنبات والماشية هودموزي (تموز). كما اعتقدوا بان زواج هذا الاله الشاب من هذه الالهة الجميلة . التي اعتبروها ايضا الهة الحب . كان المصدر لكل مظاهر الخصب في الحياة. ولم يقف سكان وادي الرافدين عند الايمان بالمعتقدات فقط بل كان لزاما عليهم [1] ان يقيموا احتفالات وطقوساً دينية يعيدون أو يحاكون من خلالها ماصنعته الالهة في البدء ومن ذلك زواج اله الخصب دموزي من الهة الخصب انانا . وهو الزواج الذي كانوا يقيمونه سنويا في موسم الربيع والذي اصطلح المختصون على تسميته بالزواج المقدس .

ولقد كان الزواج المقدس . كاي احتفال ديني آخر . يتضمن ترتيل الاناشيد والقصائد مما يؤلفه الشعراء السومريون على لسان العروس المقدسة انانا (عشتار) التي تقوم بتمثيل دورها احدى كاهنات المعبد. وعلى لسان العريس الاله دموزي الذي يقوم باداء دوره الملك (أواحد الكاهنة) وكان الزواج المقدس يتضمن مراسيم وطقوساً عديدة كانت تنتهي بدخول الملك بالكاهنة محاكاة لزواج اله الخصب من الهة الخصب .

بعد هذه المقدمة القصيرة عن مايسمى بالزواج المقدس التي كان من الضروري ذكرها لتعريف القاريء بأوليات الموضوع . ننتقل الآن الى صلب موضوعنا الحالي وهو سفر نشيد الانشاد لسليمان. فمن الجدير بالذكر أن هذا السفر القصير الذي يتكون من ثمانية اصحاحات فقط . كان منذ زمن طويل ومايزال موضوع نقاش بين رجال الدين والمعنيين بدراسة العهد القديم على الرغم من انه لاينسجم في نظر بعض الباحثين بأية صفة دينية فهو لايمت بصلة

الى المعتقدات الدينية للعبرانيين اوتاريخهم . كما أن محتوياته لاتنسجم اصلاً وطبيعة الكتاب المقدس فهذا السفر عبارة عن مقطوعات غزلية ترد تارة على لسان فتاة هيمانة بفتى احلامها الذي سحرها بجماله وخصائله . والتي بلغ الوجد بها حداً بحيث أنها راحت تتحدث وبصورة ساخرة حتى عن علاقاتها الجنسية معه . وتارة أخرى ترد الانشودة على شكل مقطوعات غزلية ترد على لسان فتى عاشق سحرته حبيبته بجمالها فراح يخلع عليها من الأوصاف والتشابيه مالا حصر له .

وعلى الرغم من هذا الطابع العاطفي-الجنسي الذي يتسم به سفر الاناشيد فانه في نظر بعض الباحثين . وخاصة رجال الدين الارثودوكس . يحظى بقدسية مماثلة للاسفار الاخرى من التوراة . وانه في اعتقادهم يحمل بين سطوره معنى اعمق مما يوحي بهظاهره. فعندهم أن الفتى العاشق في سفر الانشاد هذا انما يرمز الى اله العبرانيين يهوا وان الفتاة التي يتغزل بها وتتغزل به ليست سوى رمز لاسرائيل .

والى جانب هذين التفسيرين توجد تفاسير واجتهادات اخرى لانجد حاجة الى ذكرها باستثناء رأي واحد نعتقد انه على جانب كبيرمن الأهمية بالنسبة لتوضيح الجذور التي استمد منها سفر الاناشيد مادته وطابعه . والرأي الذي نحن بصدده الآن يعود الى الاستاذ ميك [٢] الذي ادعى قبل نصف قرن (في عام ١٩٢٣ على وجه التحديد) ان نشيد الانشاد لسليمان انما يمثل صورة محورة للطقوس العبرانية التي كانت تقام احتفالا بزواج اله الشمس من الألهة الأم . وان طقوس هذا الزواج المقدس قد اخذها العبرانيون عن الكنعانيين الذين اخذوها بدورهم عن سكان وادي الرافدين . ومن جملة النقاط الرئيسية التي استند اليها ميك في تكوين فرضيته :

١- ان الفتى العاشق في « نشيد الانشاد » ينعت مرة بكلمة « ملك » ومرة أخرى بكلمة « راع » وهما من نعوت اله الخصب دموزي (تموز) في وادي الرافدين .
٢- ان الفتاة في نشيد الانشاد توصف مرة بكونها « زوجة » ومرة بكونها « اختاً » وهاتان أيضاً صفتان لالهة الخصب انانا (عشتار) .
٣- ان السفر موضوع البحث عبارة عن حوار عاطفي يرد مرة على لسان الفتى ومرة على لسان حبيبته على غرار ما نجده في قصائد الحوار السومرية بين الاله دموزي وحبيبته انانا .

ولابد لنا من ان ننوه بأن طقوس الخصب لم تكن أمراً غريبا بالنسبة للعبرانيين ويتجلى ذلك بوجه الخصوص في تجسيدهم العلاقة بين الههم يهوا وبين اسرائيل وكأنها علاقة زوج بزوجته .

ومما يجدر ذكره أيضاً ان الاستاذ ميك قد جاء بفرضيته هذه في وقت لم يكن يتوفرفيه الاعددا قليلاً فقط من النصوص السومرية الخاصة بطقوس الخصب والزواج المقدس . وانه استطاع بالرغم من ذلك . ان يستوحي فرضية هي في اعتقادنا على جانب كبير من الصحة والأهمية .

وفي عام ١٩٦٢ . اي بعد مضي اربعين عاماً على مقالة الاستاذ ميك الاولى بخصوص سفر الاناشيد . وهي فترة طويلة قطعت خلالها الدراسات السومرية شأواً بعيداً حيث توفرت مادة غزيرة ودراسات لغوية وأدبية مستفيضة . نشر الاستاذ كريمر مقالة عن (سفر نشيد الانشاد وأناشيد الحب السومرية) [٣] . لقد استعرض الاستاذ كريمر في مقدمة مقالته وباختصار الاراء التي قيلت بصدد هذا السفر ومنها الراي القائل بعلاقته وتاثره بطقوس الخصب عند السومريين . وقد استخلص الاستاذ كريمر في ضوء ما اكتشف من نصوص سومرية جديدة تنشر لاول مرة أن سفر الانشاد يمثل هو الآخر أناشيد دينية لطقوس الخصب والزواج المقدس عند العبرانيين وانه لذلك ليس مجرد « أغان عاطفية رخيصة » . وأخيراً فانه ايد الرأي القائل بتأثير مدوني سفر الانشاد بأناشيد الزواج المقدس وان كان « نشيد الانشاد لسليمان » في رأيه يسمو في صوره وخياله على الاناشيد السومرية التي يخيم عليها طابع الجمود وانعدام العاطفة على حد تعبيره [٤] .

وفي عام ١٩٦٩ عاد الاستاذ كريمر الى موضوع « نشيد الانشاد » فافرد له فصلاً في كتابه عن « طقوس الخصب والزواج المقدس » . وعلى الرغم من ان هذا الفصل في معظمه عبارة عن اعادة للمعلومات التي تضمنتها مقالته المشار اليها اعلاه (الحاشية رقم ٣) . الا انه عرض بشيء من التفصيل لرأي ميك واراء اخرى مما قيل بخصوص هذا السفر كما انه تضمن مقطوعات سومرية جديدة تتعلق بطقوس الزواج . وقد خلص الاستاذ كريمر من خلال دراسته المقارنة الى ما كان قد توصل اليه من قبل الاستاذ ميك فأقر بوجود تشابه بين هذه المقطوعات السومرية وبين سفر الانشاد وان هذا التشابه يتعدى الصورة والاطار العام الى التشابه في بعض التعابير أحياناً . واذا ما انتقلنا من العموميات الى التفاصيل الدقيقة للموضوع وجب علينا . لاثبات وجود تأثيرات سومرية - بابلية في سفر نشيد الانشاد . ان نقدم دراسة مقارنة بين النصوص السومرية والنص التوراتي . ويمكننا بهذا الخصوص تقديم النقاط التالية : -

١- قلنا ان الملك السومري كان يقوم بدور الاله العريس دموزي (تموز) في طقوس الزواج المقدس ولدينا نصوص توضح ذلك . نذكر منها على سبيل المثال قيام كل من الملك شولكي (٢٠٩٥-٢٠٤٨ ق . م) وشو- سن (٢٠٣٨ - ٢٠٣٠ ق . م من سلالة

او الثالثة) والملك ادن – دكان (١٩٧٤ – ١٩٥٤ ق . م من سلالة ايسن) . بهذه المهمة . وبطبيعة الحال فان دور الملك سليمان في سفر نشيد الانشاد يكون مطابقاً لدور نظيره الملك السومري فهذه العروس السومرية تخاطب زوجها الملك السومري شو – سن وتدعوه بحرارة لأن يقبلها :

« ايها العريس دعني اقبلك
فقبلتي عزيزة أحلى من الشهد
وفي حجرة النوم مملوءة شهداً
دعني اتمتع بجمالك اللطيف
ايها الاسد دعني أقبلك
فقبلتي عزيزة أحلى من الشهد »
« وانت مادمت تحبني
اتوسل اليك ان اقبلك
ياسيدي الاله . ياسيدي الحافظ
ياشوسن . يامن يدخل السرور الى قلب انليل
اتوسل اليك ان اقبلك [٥] »

ونظيراً لهذا في سفر الاناشيد نجد العروس هي الأخرى تدعو حبيبها « الملك » لأن يقبلها فتقول :

« ليقبلني بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر لرائحة ادهانك اسمك دهن مهراق لذلك احبتك العذارى اجذبني وراءك فنجري (١ : ١–٤) .

٢–من المعروف عن دموزي (تموز) باعتباره الهاً للخضرة والماشية . أنه نعت بـ « الراعي » (في السومرية sipa والبابلية Re'u). ولهذا كان من الطبيعي ان يطلق اللقب نفسه على الملك الذي يقوم بدوره في احتفال الزواج المقدس . لنأخذ مثالاً على ذلك الابيات التالية من مقطوعة نظمت على لسان العروس وهي تخاطب الملك السومري شولكي :

عندما اغتسل من اجل ثور الوحش . من اجل
سيدي
عندما اغتسل من اجل الراعي دموزي
عندما اطيب فمي بالعنبر
عندما أزين عيني بالكحل ..
عندما يحيط خصري بكلتا يديه الجميلتين [٦] ...

وبالمثل يظهر العريس في سفر الاناشيد هو الآخر بشخصية راع للغنم :

« اخبرني يامن بحثه نفسي أين ترعى أين تربض عند الظهيرة . لماذا أنا اكون كمقنعة عند قطعان اصحابك . ان لم تعرفي ايتها الجميلة بين النساء فاخرجي على آثار الغنم وارعي جداءك عند مساكن الرعاة » (١ : ٥–٨)

٣–كثيراً مايلقب الاله دموزي في نصوص الزواج المقدس (وكذلك بديله الملك) بـ « ثور الوحش » (في السومرية Ame والاكدية Remu) وهو لقب يقصد منه الدلالة على القوة والقدرة على الاخصاب . نذكر على سبيل المثال (السطر الاول في المقطوعة السابقة من الفقرة ٢) والمقطوعة الآتية التي تتوسل فيها انانا الى حبيبها دموزي بأن يطلق يديها لأنها تأخرت في العودة الى البيت . فهي تقول :

ماهذا ياثور الوحش . اخل سبيلي.
ياكولي – انليل [٧] اخل سبيلي لابد أن ارجع الى البيت
فبأية حيلة سأتذرع الى أمي ؟
باية حيلة سأتذرع الى أمي ننكال ؟ [٨]

وبالمثل فان الفتاة في سفر الاناشيد تشبه حبيبها بحيوان جبلي قوي وجميل هو الضبي مرة والايل مرة أخرى فتقول :

« صوت حبيبي هو ذا آت طافراً على الجبال قافزاً على التلول . حبيبي شبيه بالضبي أو بعفر الأيائل....(٢ : ٨–٩)

٤–يجد الباحث في النصوص السومرية للزواج المقدس وكذلك في سفر نشيد الانشاد ان هناك تأكيداً واضحاً على مظاهر الخصب والانماء والتجدد وعودة الحياة الى الطبيعة في موسم الربيع وهو الموسم الذي كان يقام فيه الزواج المقدس احتفالاً بعودة الاله دموزي ثانية الى الحياة من العالم السفلي [٩]

٥–ومن نقاط التشابه الاساسية الأخرى ان العريس الاله في النصوص السومرية يستعمل في مخاطبة عروسه لفظ « اختي » [١٠] وهذا مانجده أيضاً في نشيد الانشاد لسليمان .

فالراعي دموزي يذكر حبيبته أنانا بما قدم لها من هدايا فيقول :

اختاه ! الى قلبك أنا من جلب الشهد
اجل ! الى قلبك . القلب المحبوب انا من جلب الشهد
اختاه ! ياضوء النجوم . ياشهد الام التي ولدتها
اختاه ! يامن جلبت لها ارغفة الخبز خمسة خمسة
اختاه ! يامن جلبت لها ارغفة الخبز عشرة عشرة

ويضيف الراعي دموزي بخصوص هدايا عروسه فيقول :

اختاه ! ساجلبها معي الى البيت
حملان لطيفة ونعاج
جداء لطيفة وماعز
حملان جيدة ونعاج
جداء جيدة وماعز
أختاه ! سأجلبها معي الى البيت [١١]

وها هو العريس في سفر الانشاد يخاطب عروسه مستعملا الكلمة نفسها :

« ما أحسن حبك يا أختي العروس كم حبك أطيب من الخمر وكم رائحة دهانك أطيب من رائحة الاطياب . شفتاك يا عروس تقطران شهداً . تحت لسانك عسل ولبن ... (٤ : ١٠ – ١٢)

٦– يلاحظ الباحث في نصوص الزواج المقدس ان العريس دموزي يدعو عروسه الى دخول بستانه او جنينته للتفسح بين ظلالها واشجارها . وان العروس انانا تستجيب لتلك الدعوة . فنها هي تقول :

ادخلني الينا
ادخلني أخي الى جنينته
ادخلني دموزي الى جنينته
فتمشيت معه بين اشجارها الباسقة
وتوقفت معه عند أشجارها الممتدة
ثم « جثوت » كما يجب عند شجرة التفاح

وفي سفر الانشاد أيضا ترد الاشارة الى دخول العروس « جنة » الحبيب

« استيقظي يا ريح الشمال وتعالي يا ريح الجنوب .
هبي على جنتي فتقطر أطيابها . ليأت حبيبي الى جنته ويأكل ثمرة النفوس . قد دخلت جنتي يا أختي العروس قطفت مرى (Myrrh) مع طيبي أكلت شهدي مع عسلي . شربت خمري مع لبني ... (٤ : ١٦ . ٥ : ١) ثم ترد الاشارة الى شجرة التفاح . على غرار ما جاء على لسان انانا في المقطع الذي ذكرناه قبل قليل :

« كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين . تحت ظله اشتهيت ان أجلس وثمرته حلوة لحلقي . أدخلني الى بيت الخمر وعلمه فوقي محبة . اسندوني بأقراص الزبيب . انعشوني بالتفاح فاني مريضة حباً .. » (٢ : ٣–٤) .

٧– من نقاط التشابه الاخرى في كلا النصين مجيء العريس الى دار حبيبته طارقاً باب بيتها واستجابة العروس بفتح الباب وهي في أجمل ثيابها وأبهى زينتها . فلنستمع الى دموزي وهو يخاطب انانا فيقول :

اختاه لم أغلقت عليك الباب
يا صغيرتي لم أغلقت عليك الباب
(وتجيبه انانا قائلة) :
كنت استحم . كنت اغتسل بالصابون
اغتسل بالابريق المقدس
اغتسل بالصابون في الطست الابيض
كنت ارتدي ثياب الملوكية . ملوكية السماء
ولهذا أغلقت على نفسي الباب

وتقول العروس في سفر نشيد الانشاد بهذا الخصوص :

انا نائمة وقلبي مستيقظ . صوت حبيبي قارع .
افتحي لي يا اختي يا حبيبتي يا حمامتي يا كاملتي لأن راسي امتلأ من الطل وقصصي من ندى الليل . خلعت ثوبي فكيف البسه . قد غسلت رجلي فكيف اوسخها . حبيبي مد يده من الكوة فأنت عليه احشائي . قمت لافتح لحبيبي ويداي تقطران مرا واصابعي مر قاطر على مقبض الباب .... »
(٥ : ٢–٤)

٨–من المعروف أن الزواج المقدس كان ينتهي بدخول العريس (الملك أو الكاهن) بزوجته (الكاهنة) محاكاة لزواج اله الخصب من الهة الخصب . والملاحظ في النصوص السومرية أن الحديث عن « المضاجعة » في ليلة الزفاف يأتي عادة على لسان العروس ولدينا نماذج كثيرة من هذه القصائد التي نكتفي بالقول عنها انها عبارة عن حديث مكشوف عن الجنس ودعوة سافرة للوصال [١٣] . وهذا مانجده أيضاً في سفر نشيد الانشاد.

فها هي العروس تقول عن نفسها : « في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي . طلبته فما وجدته . أني اقوم واطوف في المدينة في الاسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي . وجدني الحرس الطائف في المدينة فقلت ارأيتم من تحبه نفسي فما جاوزتهم قليلا حتى وجدت من تحبه نفسي فامسكته ولم ارخه حتى ادخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي ... » (٣ : ١–٤)

ملاحظات ومراجع

2. American Journal of Semitic Language and Literature, Vol. 39, pp 1-14.
3. Kramer, "The Biblical Song of Songs and the Sumerian Love Songs". Bulletin of the University Museum of Pennsylvania, Vol. 5, No. 1 (1962), pp 25-31.

(١) لقد كان امراً ضرورياً وممكناً بالنسبة لانسان العصور القديمة أن يعيد ماحدث في البدء عن طريق اقامة الطقوس . ذلك لأن معرفة الانسان القديم باساطير وقصص الالهة أي بتاريخه المقدس . كان امراً ضرورياً ليس فقط لأنها تعطيه تفسيرا لاسرار الكون وعن كيفية وجوده بالذات في هذا الكون . وانما لأنه يستطيع من خلال استذكار الاساطير ومن خلال اعادة وقائعها أن يعيد ماصنعته الالهة في البدء . حول مزيد من التفاصيل انظر :
Mircea Eliate, Myth and Reality (New York, 1963), pp 12 - 13 .

(٤) في الواقع لايختلف اثنان من المختصين في السومريات في ان اندثار اللغة السومرية لبضعة آلاف من السنين قد جعلنا عاجزين عن تحسس تلك المعاني الرقيقة لكثير من المفردات والتعابير التي كانت تحمل دون شك صورا خلابة وتتضمن خيالا واقعا واسعين .

5. Kramer, "The Sacred Marriage Rite", pp 92-93.
6. Ibid, pp 63-64

(٧) من نعوت دموزي ومعناه صديق الاله الليل .

8. Kramer, op. cit. 72, 82.

(٩) حيث كان يعتقد انه يقضي نصف عام في عالم الاموات ويخرج في النصف الاخر ليبعث الحياة في الطبيعة من جديد في موسم الربيع . حول مزيد من التفاصيل راجع : الدكتور فاضل عبدالواحد علي . عشتار وماساة تموز (بغداد ١٩٧٣). ص ١٦٧ وما بعدها .

(١٠) ينبغي أن نلاحظ بأن الكلمات أم . أخ . أخت . ابن . التي كثيراً مايرد ذكرها على لسان أنانا ودموزي في مخاطبة احدهما الاخر . لايراد بها طبعا صلة النسب وانما عمق العواطف وصدقها . فحب أنانا لدموزي . على سبيل المثال . صادق وعميق كحب الاخ لاخته وكالام لابنها . حول مزيد من التفاصيل بخصوص ذلك . راجع :

Frankfort, "Kingship and the Gods", pp 83 ff; Kramer, "The Sacred Marriage Rite", pp 128; 156 n. 24.

11. Kramer, op. cit, p. 98.
12. Kramer, op. cit., p. 101.
13. Kramer, op. cit, p. 97.

* * *